التربيـة والتعليم

عند العرب والفرنج

للاستاذ أحمد فهمى العمروسى بك

ناظر مدرسة المعلمين العليا

فى الجزء الأول من السنة الثانية (مايو سنة ١٩٣٢) تناول الأستاذ الجليل أحمد فهمى العمروسى بك ، البحث عن أصول التربية والتعليم عند العرب وموازنتها بما عند الافرنج ، مثبتاً أن للعرب فضل الأسبقية فى جل الآراء الحديثة ، وقد عنى الاستاذ العمروسى بك بكتاب أدب الدنيا والدين بصفة خاصة ، فتناول منه طرفتين بالتحليل والتفصيل.

وها هو الآن يتناول الطرفة الثالثة ـ والأخيرة من البحث ـ بالتبيان والتبسيط، مما لا يترك مجالا لناقد أو جاحد على العرب فضلهم ؟ المحرر

الطرفة الثالثة للماوردى : وهى طرفة هامة جداً لأنها تتناول جوهر التربية وتمس أهم معضلاتها وأدق مشكلاتها وهى بنصها :

« ينبغى للعالم أن تكون له فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله ذكاؤه أو يضعف عنه بلادته ، فانه أروح للعالم وأنجح للمتعلم — وقد روى ثابت عن أنس بن مالك، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت»، وقال عبد الله بن الزبير: « لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه » .

وإذا كان العالم فى توسم المعلمين بهذه الصفة، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً، لم يضع له عناء، ولم يخب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه فى عناء مكد وتعب غير مجد .

وقال بعض العلماء : « كل علم كثر على المستمع، ولم يطاوعه الفهم، ازداد القلب به عمى، وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان » اهـ

هذه الجملة على قصرها أثارت فى نفسى أمرين خطيرين: الأول حرج مركز المعلم وصعوبة موقفه وعظم التبعة الملقاة على عاتقه فى المجتمع ، والثانى الطريقة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها فى تقويم عقول الناشئين وتهذيب أخلاقهم .

ولكى تفهم موقف المعلم فى الأمة من موقف غيره من العاملين لخيرها كالمهندس والطبيب وغيرهما ، ولكى ندرك الصعوبة التى يلقاها ، والعقبات التى يصادفها بالنسبة لهؤلاء ، يجب أن نلم بالفرق بين العلم والفن ، فنقول: إن العلم والفن شكلان مختلفان من أشكال التفكير ، والفرق بينهما كالفرق بين النظرى والعملى ؛ فالعلم يبحث فى النظريات والنواميس العامة دون أن يلابس الكائنات ، إلا ريثما يلاحظ ليستنبط ، ويقنن ، بخلاف الفن فانه يلقى بنفسه فى أحضان المحسوسات ليطبق تلك القوانين العامة على الكائنات على اختلاف أنواعها ، وفى الظروف المختلفة التى تحيط بكل حالة منها على انفرادها ؛ فعلم الطبيعة مثلا يضع القوانين العامة للجاذبية والحرارة والكهرباء والمغناطيسية بصرف النظر عن استقراء الأجسام التى تظهر فيها تلك الخواص ، فلا يتبعها فرداً فرداً لمعرفة أحوالها وخواصها ، أما الفن فانه يصرف همه إلى تطبيق تلك القوانين العامة والاستفادة منها فى رفع الأثقال مثلا ، ونقل الأجسام من مكان إلى آخر بحيث إن كل مسألة تؤخذ على حدتها وتحل على حسب ما يناسبها .

وبينما العالم يسبح فى هدوء وسكون فى عالم الحق الفسيح بمعزل عن الناس يشحذ ذهنه ويرهف فكره فى استنباط الحقائق وتقنينها ، وليس له من غرض سوى اتباع شهواته العقلية ، والتوغل فى الفتوحات العلمية ، والتعمق فى ميادينها المجهولة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، إذا بالفن يضع نفسه وسط الأشياء لغرض معين محدود ؛ فالمربى مثلا ينصب نفسه وسط الناس لتعليمهم وتلقينهم الحقائق العلمية وفقاً للقواعد التى وضعها علماء التربية ، وهى مهمة — ولا شك — أشق من مهمة العالم ، لأنه باتخاذه إياها مهمة له قد أخذ على نفسه أن يهذبها ويرتبها حتى يجعلها سائغة تقبلها عقول الناس ، ولهذا يتخير الأساليب السهلة ، ويتوخى الطرق الشائقة التى تترك أكبر أثر فى نفوس المتعلمين ، مع العناية بتمحيص تلك الحقائق وتخليصها من كل ما يشوبها من شوائب الشكوك والتأويلات الباطلة ، فيكرر ويعيد — بدون ملل أو كلال — حتى يصل بالمتعلم إلى غاية ما يريد وتلك مهمة دائبة تستوعب العمر وتستنفد الحياة ، فكما ذلت صعاب بدا غيرها ، وكما دويت علل ظهرت علل ، ومن هنا ترى البون شاسعاً بين مهنة المدرس وبين مهنة المهندس مثلا فى الصعوبة التى يلقاها كل منهما ، فالمهندس يعمل على أجسام خامدة وأرقام صامتة ، ويصل إلى نتيجة حاسمة ، وليس لجسم من الأجسام أن يشذ عن القاعدة ، أما المدرس فيعنى بأجسام ذات أرواح وعقول وشعور وميول ، تختلف فى شخص عنها فى الآخر ، ولكل واحد أحوال خاصة تستدعى علاجاً خاصاً . ولذلك كان أفلاطون يقول: إن أرسطو يحتاج إلى لجام ، أما زينكرات فانه يحتاج إلى مهماز .

وقصارى القول : إن الصفة البارزة فى المعلم هى الفراسة والنظر الصحيح إلى المتعلمين وتوسمهم ، كما يقول الامام الماوردى رحمه الله ، حتى يرسل شعاع فراسته إلى عقولهم وميولهم وسلوكهم وأخلاقهم ، فهم يختلفون فى العقول اختلافهم فى الوجوه ، وإن اختلافهم فى الاحساس

والشعور أوسع وأعظم ؛ فلكل واحد منهم شعور خاص وميول خاصة، كما أن له لغة خاصة وتعبيراً خاصاً، وطرقا للتفكير غير طرق أخيه وزميله؛ خذ الشرف مثلا ـ الذي يظن لأول وهلة أنه فضيلة عامة فى الناس بدرجة واحدة ـ فإن تقديره يختلف كذلك فى إنسان عن تقديره فى آخر. فقد ذكر التاريخ أن القائد الرومانى (كاتون) قتل نفسه عقب انتصار يوليوس قيصر عليه فى موقعة «يوتيك»؛ بينما سلم أقرانه القواد الآخرون الذين تربوا معه تربية عسكرية واحدة، وهزموا معه فى تلك الموقعة؛ دون أن يروا فى الخضوع للقوة والاستسلام للغالب حطا من كرامتهم أو مساسا بشرفهم.

ومن نصائح الامام ابن خلدون الغالية فى هذا الصدد « أن لا يؤخذ الغلمان جميعا بطريق واحدة ، وأن لا يعاملوا معاملة واحدة فى العلاج والتهذيب ، وإنما يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم » ، قال: «وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم ، وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وفى سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته » اهـ .

وهنا يجب على أن أنبه الأذهان إلى هذه الملاحظة الدقيقة ، وهى أن فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلا ذا شخصية مستقلة ـ يحتاج فى تقويمه وتهذيبه إلى علاج خاص، تلك التى فطن لها فلاسفة العرب ـ لم تكن معروفة قط عند الأمم الاوروبية فى القرون الوسطى ، بل كان المعروف عندهم أن التربية واحدة للجميع؛ فكان التلاميذ يفكرون بطريقة واحدة ويشعرون بكيفية واحدة كأنهم أفرغوا فى قالب واحد، وكان المدرس يعطى درسه لتلاميذه كأنهم كتلة واحدة، دون أن يفكر فى تكييفه وتنويعه وفقاً لطبائعهم وأمزجتهم وأحوالهم وأسنانهم ؛ وكانت العقائد الدينية تحظر كذلك أن يفكر إنسان بتفكيره الخاص، وأن يشعر بشعوره الخاص، ولم تظهر فى أوربا كلها فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلا ذا شخصية ذاتية إلا فى عصر النهضة أو إحياء العلوم فى القرن الخامس عشر ؛ ولكننا نحن فى الشرق نفتخر بما كان عليه أسلافنا فى تقرير هذه الفكرة والعمل بها بطريقة عملية؛ كما أشار إليها ابن خلدون فيما نقلناه؛ وهو الذى دعا أساطين التربية والتعليم فى أمريكا إلى التنويه والاعجاب به كما أسلفنا(١) .

وعلى المربى فوق ذلك أن يكون منزها عن الأغراض المادية والمعنوية ؛ لأنه نصب نفسه لهذه الحرفة الشريفة كما أسلفنا، وعليه أن يجد فى عمله، ويسعى إلى الخير جهده؛ وليس عليه أن تتم المطالب؛ فإن من أجل أمور هذه المهنة أنها تهيب بنتيجة جهودها، وتخفى عاقبة أمرها، فقد يخفق المربى حين يظن النجح حليفه، وقد يكون انتصاره إخفاقا تاما وهزيمة منكرة؛ وهذا

(١) راجع الجزء الاول من السنة الثانية لهذه المجلة (مايو سنة ١٩٣٢)

ما حدث للعربي «فنلون» حين عهد إليه تأديب «دوق برجونيا» ولي عهد لويس الرابع عشر، فانه بدل أن يخرج منه للملكة ملكا حازما أخرج لها قسيساً زاهداً؛ ذلك لأنه وجه كل جهوده - عن صدق نية وحسن اعتقاد - إلى ناحية الزهد والورع، فنجح في ذلك نجاحاً تاماً، إلا أنه أخطأ خطأ فاحشاً في التوسم وبعد النظر؛ فقد كان من أوجب الواجبات عليه أن يبث في تلميذه قبل كل شيء روح النشاط وحب العمل والتسيطر والتسلط وما إلى ذلك من الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن هو مرشح لتولي السلطنة والهيمنة على أمور أمة بأكملها؛ وقد تأتى الخيبة من طبيعة التلميذ الجامدة وعقله الخامل، وهذا ما حدث للعربي الفرنسي «بوسويه» مع ابن لويس الرابع عشر نفسه؛ فانه لم يحصل منه بعد العناء الشديد والجهد الجهيد على نتيجة تذكر.

من أجل هذا كله وجب على المربي - قبل كل إنسان - أن يعنى بعمله عناية تامة، وأن يبذل الجهد الجهيد في سبيل تذليل مسائل العلم وتبسيطها وتمهيد الطريق لتفهيمها للنشء تفهيما صحيحاً، وعليه في الوقت نفسه أن يشتغل لوجه الله خالصاً، وأن لا ينتظر مكافأة على جهوده سوى شعوره أنه قام بما وجب عليه نحو أمته وبلاده بقدر ما وصل إليه الجهد، واتسعت له الطاقة، وإذا قدر له النجاح وأخرج للأمة رجالا نافعين، فقد تمت له السعادة ونال الحسنى وزيادة؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا علي لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»، وفي رواية أخرى: «خير لك مما طلعت عليه الشمس»؛ ذلك هو الموقف الدقيق الذي يقفه المعلم من تلاميذه شرحته لقراء «المعرفة» الغراء شرحاً يتفق وأهمية نظرية التفرس أو التوسم كما يقول الامام الماوردي.

بقي أن ننظر في تطبيق تلك النظرية وترسمها في معالجة أمور التربية والتعليم فنقول: يجب أن تسير تربية الأطفال بطريقة متدرجة متصاعدة، كما تتدرج الطبيعة نفسها في ظهور قوى الطفل النفسية، فيبدأ بتربية الجسم والعمل على إنمائه بالطرق الصحية، ثم يعنى بأمر التربية الخلقية التي تتناسب مع أسنان الأطفال، ثم تأتي بعد ذلك تربية الحواس، فيدربون على دقة الملاحظة والمضاهاة، حتى يتسنى لهم استنباط الكليات من الجزئيات، والقواعد والتعاريف من الأمثلة، وبذلك ينتقل من المحسوس إلى المعقول ومن البسيط إلى المركب؛ فعلى المربي أن يتريث وألا يتعجل فيكلف الطبيعة فوق طاقتها، والطبيعة البشرية كما يقول (روسو) هادية من تلقاء نفسها إلى الحق والباطل، كما أنها ملهمة الخير والشر؛ ولا شيء يصدها عن سواء السبيل ويبعدها عن إدراك الغاية، التي هيأها الله لادراكها، إلا التربية الناقصة البتراء التي نعاها (مونتين) على القائمين بأمر التربية في زمانه، حيث يقول: «لقد كانت حكمة الأمة الفرنسية مضرب الأمثال من قديم الزمان، وإننا حتى اليوم لا نرى أذكى من أبناء فرنسا الصغار، ولكنهم للأسف لا يلبثون متى صاروا رجالا أن يخيبوا الآمال، ويخلفوا المظنون، ويفشاهم من الغباوة والبلادة مايلفت الأنظار ويحير الأفكار، وقد قال لي بعض الثقات: إن المدارس التي يختلفون اليها هي التي تفسد عقولهم وتعمى أفئدتهم».

وقد نحا الروائي الشهير (الكسندر دوماس) نحوه في الازراء بالتربية في زمانه، حيث يستفهم أحد الممثلين في إحدى رواياته قائلا: لماذا ينقلب أطفالنا الظرفاء المهذبون رجالا غلاظ الأكباد خبثاء الطوية قساة القلوب ؛ فيرد عليه ممثل آخر قائلا: لا بد أن يكون السبب في ذلك التربية .

وعلى ذكر انتقاد الأفراد الخارجين عن دائرة التعليم طرق التربية في المدارس ، أنقل لك فكرة طريفة من كتاب « مشكلة التربية » (١) تأليف الدكتور (دوجاس) أستاذ علم التربية في جامعة « رن » بفرنسا وهي :

«إن الاصلاحات التي أدخلت على طرق التربية والتعليم في المدارس، إنما كان مصدرها تلك الانتقادات التي جادت بها قرائح مفكرين ليس لهم صلة بالتربية والتعليم ، ولكنهم أفراد يثورون ضد كل فاسد ، وينهضون لاصلاح كل معوج ، وإن علم التربية برمته قد نما وترعرع خارج منطقة المدارس بفضل جهود هؤلاء الأفراد ، فلم يكن «رابليه» و «مونتين» و «روسو» و «ستيوارت ميل» و «سبنسر» ممن اشتغلوا بمهنة التربية والتعليم ، ولكنهم بإخلاصهم وغيرتهم على الصالح العام أوجدوا علم التربية الحديث ، وتعهدوه ، وهو لا يزال ينمو اليوم ويرق بفضل جهود أفراد بعيدين عن حركة التعليم » ، ثم استدل على ذلك بفقرة من كتاب التربية تأليف « هربرت سبنسر » هذا نصها :

« لو لم يكن لدينا سوى المدارس العامة (٢) وما يتخرج فيها من رجال وعلماء رسميين لبقيت انجلترا إلى اليوم كما كانت في عهد الاقطاعات ، ولكن علمنا الذي يزداد كل يوم والذي مكننا بوساطته أن نخضع الطبيعة ، وأن نسخرها لحاجاتنا حتى أصبح الفلاح عندنا يتمتع برخاء وسعادة ما كان يحلم بها الملوك الأقدمون ـ لم يكن لمعاهد التعليم العامة فيه سوى حظ يسير . أما المعلومات الحيوية التي أوجدت منا أمة عظيمة ، والتي تقوم عليها حياتنا الأهلية ، فمن عمل أفراد مخلصين ، لا يشعر بهم أحد ولا يعلم الجمهور عنهم شيئاً ، وبينما هؤلاء يكدون ويكدحون في الخفاء إذا بمعلمي المدارس العامة الرسميين ذوى المناصب العالية يلوكون ألفاظاً ويرددون عبارات ما أنزل الله بها من سلطان » .

لذلك ينصح (روسو) المعلم أن يمحو شخصيته أمام الأطفال ، وأن يقتصر عمله على النصح والارشاد والهدى إلى التي هي أقوم ؛ (وهذا ما يعبر عنه روسو) بالتربية السلبية .

وهو ينحى باللائمة الشديدة على التربية التي تدفع الطفل إلى العلم دفعاً وتكلفه حمل ما لا طاقة له بحمله ، وفهم ما لا قبل له بفهمه ، وإدراك ما لا تقوى عليه مداركه ، ويصفها بأنها تربية متعسرة ، لأنها تحاول أن تنقل الطفل فجأة من طور الطفولة إلى مصاف الرجال ، وتريد أن تلقنه ـ وهو طفل ـ حقوق الرجال وواجباتهم .

وقد سبق (روسو) إلى نقد هذا النوع من التربية فلاسفة العرب ، فهذا صاحب « أدب

---

(1) Le probleme de l'edu cation

(2) Public Schools

الدنيا والدين » يهيب بها وينادي بذمها ، ويراها تأتي بعكس المقصود منها ، وأنه بها ينقلب النور ظلاماً والبصر عمى ، وذلك حيث يقول : « إن كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب في الأبدان » .

غير أن الناس في كل زمان وفي كل مكان يتغاضون — للأسف الشديد — عن هذه القضية البديهية الواضحة الجلية ، فيتجاهلها الآباء في البيت ، كما يغفلها المدرسون في المدرسة ، فتراهم يكررون جداً بتلقين أبنائهم ألفاظاً وعبارات لا يفهمون لها معنى ، ولا يقيمون لها وزناً ، وهم مع ذلك يسرهم جد السرور أن يسمعوها منهم كما يسمعون البيغاوات .

ومن ثم تنشأ في الأولاد عادة قبيحة لها أسوأ الأثر في تربية الأفراد والأمم ، وهي التكلم بالألفاظ دون الاهتمام بمدلولاتها ومعانيها ، ذلك بأن القائمين بتربيتهم حشوا أذهانهم بألفاظ وعبارات حشوا ، وحشروها فيها حشراً ، غير عالمين بأن ذلك مما يؤخر فيهم قوة الفهم ، ويضعف ملكة العقل والادراك ، ويكون حجر عثرة في سبيل التربية فيما بعد — لاحظ ابن القرية تجده أقوم فكراً وأحسن أداء وأفصح منطقاً من ابن المدينة ، لأنه يعيش في بيئة هادئة ساكنة لا يكاد يراه أهله إلا قليلاً ، نظراً لاشتغالهم بالحقول ، فلا يتعلم إلا ألفاظاً قليلة محدودة ، ثم هو لقلتها يكون على بينة من معانيها وفهم واضح لمراميها بخلاف ابن المدينة .

وقد أدرك ذلك من كان قبلنا من مفكري العرب وحكمائهم ، فنصحوا لمن عهدوا اليهم في تربية أبنائهم من المعلمين ، أن يقتصدوا في عرض الأفكار عليهم حتى لا يشغلهم تزاحمها عن فهمها ، وأن يتثبتوا من فهمهم ما يعرض لهم من الألفاظ والتراكيب حتى لا يستعملوها إلا في مواطنها اللائقة ومواضعها المناسبة .

ولنعرض فقرة من كتاب عمرو بن عتبه لمعلم أولاده حيث يقول :

« ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بعينيك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم فيه فيهجروه ، روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم » .

وجعل الامام الماوردي (صاحب أدب الدنيا والدين) من شروط بلاغة الكلام ، أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة ، وفسر المطابقة بأن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها ، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة :

« إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة إلى مستقرها ولا حالة في مركزها ، بل وجدتها قلقة في مكانها نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على القرار فيه » . وقال بعض البلغاء : « لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك . »

وهذا ما يجب على الأهل والمعلمين أن يفطنوا له ، وأن يعنوا به العناية كلها حتى لا يكون كلام أطفالهم وتلاميذهم اليوم وكلامهم وهم رجال الأمة غداً هراء في هراء ، فان الكلام ميزان دقيق في تقدير الرجال ، والحكم على كفايتهم العلمية والخلقية . ؟ أحمد فهمي العمروسي